شرح

رسالة العبودية

لفضيلة الشيخ

خالد بن عبد الله المصلح

الدرس الأول

www.almosleh.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين. إنَّ الْحَمْدَ لِلَّه، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شرور أَنْفُسِنَا، وِمِنْ سَيِئات أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِه اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أما بعد:

(فقد سئل شيخ الإسلام وعلم الأعلام، ناصر السنة، وقامع البدعة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية –رحمه الله– عن قوله –عز وجل–: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[1]. فما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ وما حقيقة العبودية؟ وهل هي أعلى المقامات في الدنيا والآخرة، أم فوقها شيء من المقامات؟ ولْيَبْسُط لنا القول في ذلك. فأجاب –رحمه الله–).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأصلّي وأسلّم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فهذا السؤال الذي سمعتموه، هو موضوع هذه الرسالة المباركة؛ وهو حول معنى العبودية التي أمر الله –جل وعلا– بها الناسَ أجمعين في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾**،[2] وهذه الآية هي أوّل آية توجَّه فيها الأمرُ من الله –جل وعلا– لعموم الناس. فإنها أوّل أوامر القرآن، وهذه الآية الأمر فيها بالتوحيد، وهذا يدلّ على أهمية تحقيق التوحيد، حيث إنّه أول ما أمر الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– به الناسَ أجمعين؛ فلم يخصَّ به فئة من الناس، لم يخصَّ به أهل الإيمان، بل جعل الخطاب فيه لعموم الناس: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾**.

فالسؤال المُتَوَجِّه: **(ما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدِّين داخل فيها أم لا؟ وما حقيقة العبودية؟ وهل هي أعلى المقامات في الدنيا والآخرة، أم فوقها شيء من المقامات؟)**. ثم قال السائل: **(ولْيَبْسُط لنا القول في ذلك)** أي المسؤول وهو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن

(١) سورة : البقرة (٢١).

(٢) سورة : البقرة (٢١).

تيمية –رحمه الله– وهو من أعظم المجدِّدين لهذا الدين، وممن نصر الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– به كتابه وسنة نبيه–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ–.

والرسالة قيّمة نافعة في موضوعها، فهي من أجود ما كُتب في تحقيق العبودية، وفي بيان معناها؛ ولذلك ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها، وأن يحرص على فهمها؛ لأنها تمثّل الأصول والقواعد.

وشيخ الإسلام–رحمه الله– إمام بارع في تأصيل الأصول، وضبط القواعد، فإنه تكاد تقول: إنه لا نظير له في هذا الباب، حيث إنه –رحمه الله– يستقرئ، صاحب تتبع ونظر، وتأمل في كلام المتقدمين، ونظر في الكتاب والسنة قبل ذلك، يقف على معانٍ قلَّ أن تجدها في كلام غيره –رحمه الله–.

ولذلك ينبغي لطالب العلم أن يعتني بمؤلفاته عموماً، وبهذه الرسالة التي نحن بصددها؛ لما تُمَثِّله من بيانٍ وتجلية لأهم مقصودٍ ومطلوب منه أو لأجله خلق الله –جل وعلا– الجن والإنس: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[1].

فهذه الرسالة تبيِّن العبادة التي خلق الله –جل وعلا– الإنس والجن لها، وتبيّن كيفية تحقيق ذلك، ما يدخل فيها وما لا يدخل.

فالعناية بها مما ينبغي لطالب العلم أن يشتغل به، وأن يوليه اهتماماً؛ حتى يحصِّل خيرًا. على أن كلام شيخ الإسلام –رحمه الله– قد يَتيه فيه بعض المبتدئين، الذين لا يفرِّقون بين الأصل والاستطراد، والشيخ –رحمه الله– صاحب استطراد وتوسُّع في بعض المعاني التي تَعْرِض له، حتى قد يُخرجه ذلك عن مقصوده، وعن مؤلفه، وعمّا يكتب فيه. فإذا ضبط الطالب محالّ الاستطراد وميَّزها عن المقصود والأصل؛ تبيّن له زبدة ما يريد الشيخ –رحمه الله– بيانه وتوضيحه في الموضوع الذي يكتب فيه.

وسننبه –إن شاء الله تعالى– إنْ جرى مثل هذا في هذه الرسالة ننبه عليه بإذن الله –تعالى–.

الجواب، قال –رحمه الله–:

(فأجاب –رحمه الله–:

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة).

(١) سورة : الذاريات (٥٦).

هذا هو تعريف العبادة: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) وهذا تعريف متوسّط، ليس بالطويل ولا بالقصير.

فمن التعاريف القصيرة المختصرة للعبادة، هو قول شيخ الإسلام –رحمه الله– في تعريفها: **العبادة ما أمر الله به ورسوله**. يشمل هذا ما أمر به على وجه الإيجاب، وما أمر به على وجه الاستحباب. كل هذا داخل في العبادة التي أمر الله بها في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[1].

وهذا التعريف متوسط يفصِّله شيخ الإسلام –رحمه الله– في بعض المواضع ويقول: **هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة**. حتى لا يتوهم متوهِّم أن العبادة هي فقط مقصورة على الواجبات؛ فالعبادة تكون في الواجبات وفي المستحبات.

طيب، قوله –رحمه الله–: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه) خرج به ما لا يحبه الله ولا يرضاه، مما يجري من أمره القدري الكوني، فإنه ليس من العبادة؛ بل لا بد في العبادة أن يتحقّق فيها وصف المحبة والرضا من الله –جل وعلا–.

وهذه العبادة، هل هي قول أو عمل؟ الجواب في قوله: (من الأقوال والأعمال)، يشمل كل قول، ويشمل كل عمل.

والقول هنا يصدق على قول اللسان وهو المتبادر: فالتسبيح، والتحميد، والذِّكر، وقراءة القرآن، وتعلم العلم، وحفظ المتون، ودراسة الكتب وقراءتها وتعليمها، ودعوة الناس إلى البر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... كل هذا من العبادات القولية، كلّها من العبادات القولية التي تدخل في قوله: (من الأقوال).

(والأعمال) يشمل كلَّ ما يكون في الجوارح الظاهرة والباطنة، ولذلك قال: (والأعمال الباطنة والظاهرة)؛ لأن العمل منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن:

- عمل الظاهر: كالصلاة والصيام والحج، وسيمثِّل له الشيخ –رحمه الله–.
- عمل الباطن: ما يقوم في القلب من المحبة، والخشية، والخوف، والإنابة، والإخبات والرجاء، والتوكل. كل هذه الأمور من أعمال القلوب.

---

(١) سورة : البقرة (٢١).

واعلم أنه من حيث مراتب العمل، أن جنس عمل القلب أعلى وأعظم عند الله -عز وجل- من جنس عمل الجوارح؛ ولذلك كان الأصل في القَبول والرد على ما يقوم في القلب. فلو أتت الجوارح والأعمال الظاهرة موافقة للإسلام، لكن القلب خالٍ من ذلك؛ لم ينتفع صاحب هذا العمل بشيء، بل هو مردود عليه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[1] كما قال الله -جل وعلا- في بيان حال من استقامت ظواهرهم وخربت بواطنُهم.

فالأصل في العمل هو عمل القلب، وأما عمل الجوارح فهو مكمِّل تابع، وقولنا :(مكمِّل) ليس معناه أنه ليس بمهم أو لا يقدح في الأصل؛ بل لا يمكن أن يستقيم الباطن ويتخلّف الظاهر إلا إذا وُجِدَ مانع، أمّا إذا لم توجد موانع فلا بد أن يستجيب الظاهر لما قام في الباطن من صلاح واستقامة وتقوى وإيمان.

إذاً تعريف العبادة **(هي: اسم جامع لكل ما يحبه اللهُ ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)** الباطنة أعمال القلوب، والظاهرة أعمال الجوارح. الباطنة: ما خفي، والظاهرة: ما يقع عليه نظر الناس في العادة.

مثَّل الشيخ -رحمه الله- لأنواعِ العبادة، فقال:

(فالصلاة، والزكاة، والصّيام، والحج، وصِدْق الحديث، وأداء الأمانة، وبِرّ الوالدين، وصِلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاءُ والذِّكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة).

هذا تمثيل لأعمال الظاهر، كل هذه من أعمال الظواهر؛ لأنها تقع عليها أعين الناس، ويشتغل بها البدن، فهي مما يظهر عادة.

ولا تَقُل: الصيام لا تدركه الأبصار، الجواب: نعم؛ لكن يظهر أثره على الإنسان، ويُخبِر به الإنسان فيما إذا شاجره أحد؛ فإنه يقول: إني صائم. وفي رمضان، يظهر الصيام على أهل الإسلام، فهو من الأعمال الظاهرة، وإن كان في الحقيقة أمرًا قد يخفى، بل هو خافٍ. فقد يصوم الإنسان ولا يُدْرى به لكن هذا لا من حيث العمل، إنما من حيث إخفاء الإنسان لعمله، كما لو أنه كان يقيم

(١) سورة : النساء (١٤٥).

الليل ولا يُعلِم أحداً بذلك، يقيم الليل في حجرة مغلقة. هذا من الأعمال الظاهرة وإن كان الإنسان مختفياً به، مُسِرّاً به.

طيب هذا القسم الأول من الأعمال، وهو الأعمال الظاهرة والأقوال الظاهرة أيضاً.

(وكذلك حبُّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدِّين له، والصبر لحُكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي منَ العبادة لله).

وهذا مثالٌ للأعمال الباطنة، فهذه كلها من أعمال القلوب. وهي أعمال جليلة إذا اعتنى بها الإنسان، حصَّل سعادة الدَّارَين؛ لأنّ أعمال القلوب يحصل بها السّبق، ولو تخلَّف عمل الظاهر.

فكثير من الناس يعتني بعمل الظاهر، ويتخلّف عنده عمل الباطن، فمهما كثر عمله تجده متأخراً عن غيره، بخلاف من اعتنى بباطنه واهتم بإصلاحه، فإنه يسبق ولو تخلّف الظاهر.

يشهد لذلك ما رواه في الصحيح عن أنس –رَضِيَ اللهُ عنْهُ– **قال: لما رجعنا من تبوك قال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: ((إن أقواماً بالمدينة ما سِرْتُم مسيراً، ولا نزلتم منزلاً، ولا قطعتم وادياً إلا شركوكم في الأجر)). قال الصحابة –رَضِيَ اللهُ عنْهُم–: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: ((نعم، حبسهم العذر))** [(١)] **وفي رواية: ((حبسهم المرض))** [(٢)]. فهؤلاء قوم لم يسيروا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن خرج معه؛ لكن لعذرٍ ومانع، لكن خرجت قلوبُهم؛ فكتب الله لهم الأجر وحصّلوا الفضل والسّبق.

والله –جل وعلا– كريم يعطي على القليل الكثير؛ فينبغي للعبد أن يعتني بمثل هذه الأمور، وأن يصحّح القصد والطلب وعمل الباطن؛ فإن فيه سعادةً لا يدركها إلا من جرّب هذا الطريق وسلكه. كما أنه من أعظم ما يُدِرُّ على الإنسان الأجور، فإنّ الأجر في عمل الباطن أعظم بكثير من الأجر على العمل الظاهر، وليس هذا تهويناً للأعمال الظاهرة، إنما هو لفْت لأنظارنا إلى أمر مهم نغفل عنه كثيراً، وهو عمل الباطن. كما أنّ آثام الباطن أعظم من آثام الظاهر، التحاشي من الكذب –وهو من الأعمال الظاهرة– أمر محمود، التحاشي من السَّرقة والتحفُّظ منها أمر محمود، ويَعْظُمُ عند الإنسان أن

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر، رقم ٤٠٧١

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر ، رقم ٣٥٣٤ من حديث جابر

يقع شخص في سرقة، فإذا قيل له: إن فلاناً سارق؛ يعظم في قلبه هذا، وحَقَّ لهذا الأمر أن يَعظُم في قلبه. لكن إذا قيل له: إنه مُرَاءٍ أو: إنه متكبر. ما عدَّ ذلك شيئاً، مع أن جنس آثام القلوب أعظم من جنس آثام الظواهر، ولذلك قال الله –جل وعلا– :﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾(1). فأمر الله –جل وعلا– بترك الأمرين وقدّم الظاهر؛ لأنه هو السهل المتيسر الذي يتمكن منه كل أحد، بخلاف الباطن الذي يحتاج إلى معالجة، وإلى دوام المراقبة؛ حتى يتحقق للإنسان.

المراد أن الشيخ –رحمه الله– عرّف العبادة في أوّل هذه الرِّسالة، وبيّن أمثلة للعبادة القلبية الباطنة، والعبادة الظاهرة التي تكون في الجوارح. ثم قال –رحمه الله–:

(وذلك أنّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، و التي خلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(2). وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾(3). وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم لقومهم، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾(4). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(5). وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(6). كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)﴾(7). وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(8).

(١) سورة : الأنعام (١٢٠).
(٢) سورة : الذاريات (٥٦).
(٣) سورة : الأعراف (٥٩)، المؤمنون (٢٣).
(٤) سورة : النحل (٣٦).
(٥) سورة : الأنبياء (٢٥).
(٦) سورة : الأنبياء (٩٢).
(٧) سورة : المؤمنون (٥١-٥٢).
(٨) سورة : الحجر (٩٩).

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[٢]. وذم المستكبرين عنها بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣]. ونعت صفوة خلقه بالعبودية له، فقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[٤]. وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[٥]).

هذا المقطع من كلام الشيخ -رحمه الله- فيه بيان منزلة الموضوع المسؤول عنه، فيه بيان منزلة العبودية والعبادة التي أمر الله تعالى بها في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[٦]. وهو من حُسن تأليفه -رحمه الله- وبديع تصنيفه، أنه بيّن معنى العبودية أو معنى العبادة التي أمر الله -جل وعلا- بها، وضرب لها الأمثلة المتنوعة التي تجلّي الأمر وتظهره وتوضحه، ثم أعقب ذلك ببيان منزلة هذا المسؤول عنه؛ هذا المأمور به في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾. فقال: **(وذلك أنّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له تعالى)**، فهي الغاية التي ارتضاها الله -جل وعلا- وأحبها وطلبها من عباده في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[٧]. فالله -جل وعلا- إنما خلق الجن والإنس لعبادته وحده لا شريك له -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهذه الغاية هي الغاية الشرعية الأمرية الدينية، وإلا فإن الله -جل وعلا- لم يجعل ذلك من كل أحد، يعني لم تحصل هذه العبودية المأمور بها في هذه الآية، أو المبيَّن الغاية منها في هذه الآية، لم يجعلها حاصلة من كل أحد. بل إذا نظرت فقد قال الله -جل وعلا- في كتابه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٨]، وقال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَإِن تُطِعْ

(١) سورة : الأنبياء (١٩-٢٠).
(٢) سورة : الأعراف (٢٠٦).
(٣) سورة : غافر (٦٠).
(٤) سورة : الإنسان (٦).
(٥) سورة : الفرقان (٦٣).
(٦) سورة : البقرة (٢١).
(٧) سورة : الذاريات (٥٦).
(٨) سورة : سبأ (١٣).

﴿أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾(١)، وقال -جل وعلا-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢). فأكثر الخلق يتخلّف فيهم تحقيق هذه الغـــاية، التي هي غاية الخلق خلق الجن والإنس، وهي الغاية المحبوبة التي رضيـــها -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

وعُلِمَ بهذا أن قوله تعالى: ﴿إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣) اللام هنا ليست لام العاقبة والصيرورة -أي اللام التي لا بد أن يقع معلولها- إنّما هي لام الغاية والتعليل، فهي داخلة في الغايات الشرعية، لا الغايات الخلْقية الكونية القدرية؛ بل هي غاية شرعية؛ يعني الله -جل وعلا- أراد ذلك شرعاً، ولو أراده قدَراً هل يقع أو لا يقع؟ لا بد أن يقع، لو كان مراداً لله -عز وجل- قدراً لا بد أن يقع؛ لكنه مرادٌ له -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أمراً وديناً وشرعاً، ولذلك ليس لازم الوقوع.

ثم في بيان هذه العبادة التي أمر الله بها وبيان منزلتها قال: (وبها أرسل جميعَ الرسل). وإذا نظرت وتأملت أن الله -جل وعلا- أرسل جميع الرسل من لدن نوح -عليه السلام- إلى آخرهم للدعوة إلى العبادة، علمت عظم شأن هذه العبادة عند رب العالمين؛ حيث إنه تابع الرسل والأنبياء كلهم للدعـــوة إليه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وإلى عبادته وحده، وإلى تحقيق هذه العبودية.

ولا شك أنّ المؤمن إذا نظر أن الله -جل وعلا- اصطفى من الملائكة رسلاً، واصطفى من الناس رسلاً، وجعل مهمة المصطفَين من الرسل ومن الملائكة هي الدّعوة إلى تحقيق التوحيد وتحقيق العبودية؛ علمتَ أن هذا أمر عظيم، وشأن كبير ينبغي للمؤمن أن يجتهد في تحقيقه، ينبغي للمؤمن أن يحرّره وأن يحققه جُهده وطاقته، وأن لا يشتغل عنه بغيره.

ومن هذا نفهم أهمية الدعوة للتوحيد، وأنّ الدعوة للتوحيد ليست ترديداً لكلام معروف، كما يروّجه بعض الناس، يقولون: إن الدعوة للتوحيد معروفة؛ لا حاجة أن ندعو الناس للتوحيد، يعرفون أن الله هو الخالق. نقول: نعم، يعرفون أن الله هو الخالق؛ لكنهم لا يعرفون أنه المستحق للعبادة الذي يجب أن يُعظَّم وأن يفرد -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بأنواع العبادة، وأن تكون حياة الإنسـان كـلها له -

(١) سورة : الأنعام (١١٦).

(٢) سورة : الشعراء (٨).

(٣) سورة : الذاريات (٥٦).

جل وعلا-: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾(١).

فالواجبُ عَلَى أَهْلِ العلم أن يعرفوا منزلة العبودية. ومن وسائل معرفة ذلك، إدراك ما أشار إليه الشيخ -رحمه الله- في هذا المقطع من المعاني العظيمة.

فالعبودية هي الغاية من الوجود، وهي الغاية المحبوبة المرضية لربّ العالمين، وهي التي تابع الله -جل وعلا- إرسال الرسل من أجلها، كما قال تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾(٢)، فما من رسول جاء إلا وهو يدعو إلى هذا، كما قال -رحمه الله-: (وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم. وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾(٣))، ثم بعد أن بين رسالة الرسل بيّن افتراق الناس قال: (﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾).

بعد ذلك ذكر الشيخ -رحمه الله- أن العبودية والعبادة هي دين الرسل، وهي الأمر الذي اشتركوا فيه جميعاً، وذلك في قوله تعالى: (﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٤)). والمقصود بالأمة هنا: الملة والدّين. أي: إن دينكم دين واحد، كما قال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: ((الأنبياء إخوان لعلاّت)) أي لضرائر، ((أمهاتهم متفرقة ودينهم واحد)) (٥). فدينهم الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾(٦). ليس فقط بعد بعثة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، بل هو الدين الذي دان به آدم، ودان به نوح، ودان به جميع الرسل، من بعد نوح -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- إلى نبينا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

---

(١) سورة : الأنعام (١٦٢-١٦٣).

(٢) سورة : الأعراف (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥) وهود (٥٠، ٦١، ٨٤) والمؤمنون (٢٣، ٣٢).

(٣) سورة : النحل (٣٦).

(٤) سورة : الأنبياء (٩٢).

(٥)البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت، رقم: (٣٤٤٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضل عيسى عليه السلام، رقم: (٢٣٦٥) من طريق أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة.

(٦) سورة : آل عمران (١٩).

وأصل الأمة في اللغة: المجموعة الذين اجتمعوا على أمر ما، ويطلَق في القرآن على الزمان، ويطلق على من جمع خصال الخير، ويطلَق أيضاً على الملة والدين، ويطلَق على الجماعة الكثيرة من الناس. وكلها تدور على معنى واحد، وهو الاجتماع على أمر ما، سواء أكان في زمان، أم كان في خصال، أم كان في عمل، أم كان في اجتماع أفراد كُثُر.

من شواهد مجيء الأمة في معنى جمع خصال الخير، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾[1]. فاجتمع فيه من الخصال ما تفرق في خلق كثير.

ومن مجيء الأمة بمعنى الزمان، قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[2] أي بعد زمن، وبعد برهة وجماعة من الوقت.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[3]. المقصود بالأمة هنا: أمة الدين والعقيدة.

ذكر الآية الأخرى التي فيها اتفاق الرسل على الدين والتوحيد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(٥٢)﴾[4]. ثم قال –في بيان منزلة هذه العبادة وهذا الأمر، قال –رحمه الله: **(وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت)**. وهذا يبين لك منزلة العبودية، أمر لم يرضَ الله –جل وعلا– له حدّاً، ولم يجعل له أجلاً ينتهي عنده، يدلُّك على أنه عظيم المنزلة، وأنه محبوب لرب العالمين، حيث لم يجعل له أمداً ولا منتهىً ولا أجلاً إلا بموت الإنسان، قال الله تعالى: (﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[5]). و﴿الْيَقِينُ﴾ هنا هو الموت، وليس كما يقول أهل التصوف من أن اليقين هو بلوغ منزلة تسقط فيها عن الإنسان الأحكام، ولا يطالَب بأمر ولا نهي؛ فإن هذا لا يكون. بل اليقين هو الموت، وهل جاء في القرآن إطلاق اليقين على الموت؟ نعم في قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ﴾ في قول أهل الجحيم :﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)﴾[6] أي حتى أتانا الموت. وهذا يقطع قول من

---

(١) سورة : النحل (١٢٠).
(٢) سورة : يوسف (٤٥).
(٣) سورة : الأنبياء (٩٢).
(٤) سورة : المؤمنون (٥١-٥٢).
(٥) سورة : الحجر (٩٩).
(٦) سورة : المدثر (٤٦-٤٧).

يقول بأن اليقين هو منزلة تسقط فيها التكاليف؛ لأن هؤلاء من أهل النار، عدوا أعمالهم التي استوجبوا بها دخول سقر –نعوذ بالله منها–، فكان منها قولهم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)﴾.

ثم قال –رحمه الله– :(وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه)، وهذا يبين لنا أن العبودية صفة الصفوة من خلق الله –عز وجل–، فصفوة الخلق حققوا العبودية، من الملائكة، ومن الأنبياء (فقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَته وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾[١]) أي: ولا يقصرون؛ بل هم جادّون حاثّون السير، يعملون عملاً دائباً في طاعة الله –عز وجل–(﴿يُسبِّحُونَ اللَّيْل والنَّهار لا يَفْتُرُونَ﴾[٢]) أي: لا ينقطعون عن التسبيح، وهذا في وصف الملائكة. (وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّك لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[٣]). لم يذكر في هذه الآية الأنبياء، فلعل في النسخة سقطاً؛ لأن الشيخ رحمه الله ذكر أن الله وصف بذلك ملائكته وأنبياءه، وسيأتي في كلام الشيخ –رحمه الله– ما يشهد بوصف الأنبياء بهذه الصفة وهي العبودية، وهذا يدل على فضلها وكمالها –سيأتي بعد قليل إن شاء الله–.

يقول: (وذم المستكبرين عنها بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٤]). و لم يتهدّد الله –عز وجل– ويتوعّد على ترك العبادة إلا لأهميتها ومحبته لها –سبحانه وتعالى–، ولأن بها يصلح حال الناس في المعاش والمعاد، وقوله تعالى: ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين أذلاء، فهم سيدخلون جهنم على صفة الصغار والذل، لا على صفة الإكرام والعلو.

ثم قال: (ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال:) يعني من غير الأنبياء (﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[٥]). هذا ليس خاصّاً بالأنبياء، هذا وصف لكل من حقق العبودية لله –عز

---

(١) سورة : الأنبياء (١٩).

(٢) سورة : الأنبياء (٢٠).

(٣) سورة : الأعراف (٢٠٦).

(٤) سورة : غافر (٦٠).

(٥) سورة : الإنسان (٦).

وجل- فهو موعود بهذا الفضل: (﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾). فالعبودية هنا عبودية خاصة وليست عبودية عامة، بل هي خاصة بأوليائه وأصفيائه.

(وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[1].ولما قال الشيطان: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[3]).

هذا تابع للوجه السابق في قوله: (ونعت صفوة خلقه بالعبودية)، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ وهم صفوة خلقه الذين حققوا له العبودية ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، والاستثناء هنا استثناء منقطع في قوله: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، ومعنى الاستثناء المنقطع: أن تقدر (لكن)، ويكون المعنى: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان؛ لكن من اتبعك من الغاوين لك عليه سلطان؛ فإنه هو الذي سلطك على نفسه. نعم :

(وقال في وصف الملائكة بذلك: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨)﴾[4]).

على عظيم خلقهم وما منحهم الله-عز وجل- من القوة والقدرة. هذه حالهم مع ربهم -جل وعلا-: ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾. فهُم جمع الله لهم عظيم القوة البدنية، فهُم من أقوى خلق الله أجساماً وأجساداً، وهُم من أقوى خلق الله إرادةً وتحصيلاً للمقصود، ومع ذلك حالهم مع ربهم -جل وعلا-: هم ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾. ولذلك إذا تكلم الجبار، تكلم الرب- سبحانه وتعالى- ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله. وإذا أدرك العبد عظيم خلق الملائكة، وعظيم قدرهم عند الله -عز وجل- حيث اصطفاهم وقربهم منه، وجعلهم الوسائط بينه وبين خلقه، إذا أدرك هذا ورأى ما هم عليه من تمام العبودية لله -عز وجل- علم عظيم حق الرب -جل وعلا- وصدَّق بقوله تعالى:

(١) سورة : الفرقان (٦٣).

(٢) سورة : الحجر (٣٩-٤٠).

(٣) سورة : الحجر (٤٢).

(٤) سورة : الأنبياء (٢٦-٢٨).

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] إذ لو قدره العباد حق قدره لما وقع منهم مخالفة، ولما انقطعوا عن ذكره وتسبيحه وتمجيده –سبحانه وتعالى–، نعم.

(وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا(٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.[2]

وقال تعالى عن المسيح الذي ادعيت فيه الإلهية والبُنُوَّة: ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾[3]. ولهذا قال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الحديث الصحيح: ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله)).

هاتان الآيتان يقول المؤلف –رحمه الله– :(وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨)﴾) والآية التي بعدها (وقال تعالى عن المسيح الذي ادعيت فيه الإلهية والبنوة: ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾) لا تتصل بقوله –رحمه الله–: (وقال في وصف الملائكة) فإنه ليس فيها وصف للملائكة، لكن يظهر لي –والعلم عند الله– أن في الكلام سقطاً، ومراد الشيخ –رحمه الله– أن العبودية لا يستحقها إلا الله –جل وعلا– وأنّ نسبتها وإضافتها إلى غيره، أمر عظيم؛ ولذلك قال تعالى :﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨)﴾ وعبدوه من دون الله وعبدوه مع الله ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)﴾ أي عظيماً ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)﴾ لماذا كل هذا؟ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا(٩٣)﴾. والعبودية المذكورة هنا هي عبودية القهر، لا يخرج عنها أحد من الخلق، لا مسلم ولا كافر، لا مؤمن ولا فاسق. بل الجميع يدخلون في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا(٩٣)﴾.

ثم قال: (﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا(٩٥)﴾).

---

(١) سورة : الأنعام (٩١) والزمر (٦٧).

(٢) سورة : مريم (٨٨-٩٥).

(٣) سورة : الزخرف (٥٩).

فبين أن العبودية لا تصلح إلا له فهي حقه –جل وعلا–، ثم قال: إن من ادعيت فيه العبودية تبرأ منها، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ﴾ أي عيسى بن مريم عليه السلام ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ(٥٩)﴾[(١)] أي جعلناه آية لبني إسرائيل، ووجه كونه مثلاً وآية لبني إسرائيل: أن الله –جل وعلا– جعله من غير أب، بل من أم فقط. وهذا وجه كونه مثلاً لبني إسرائيل، **(ولهذا قال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الصحيح)** يعني: في تحقيق العبودية، وأنها لا تصلح إلا لله –سبحانه وتعالى–: **((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله))**[(٢)]. وأيضاً هذا يرجع إلى ما تقدم من أن العبودية وصف أتقياء الله من الأنبياء؛ فهذا عيسى بن مريم –عليه السلام– وصفه الله –جل وعلا– في مقام الثناء عليه، وفي مقام بيان ما اختص به، قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾. فلم يجاوز به هذا الحد، ورسول الله–صلى الله عليه وعلى آله وسلم– قال: **((لا تطروني))** أي لا تتجاوزوا في مدحي. فالإطراء هو المجاوزة في المدح **((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله))** وهذا يبين لنا أن العبودية من أخص أوصاف الأنبياء؛ لأن بها حصّلوا الفضل والسبق.

لا، البنوة،أنا عندي البنوة. عدلوها؛ لأن النبوة وصفه، وإنما الذي ادعي فيه البنوة، ولذلك نفاها الله –عز وجل– بقوله :﴿إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[(٣)].

(وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله؛ فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[(٤)]).

أكمل أحوال من؟ أحوال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– نبينا محمد، نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله، ولا شك أنه في أكمل الأحوال، يُخلع على الموصوف أعظم الأوصاف. فلما وصفه بالعبودية في أكمل الأحوال، دل على أن أكمل أحوال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كونه عبداً لله –جل وعلا–. انظر إلى الأحوال التي وصفه الله –سبحانه وتعالى– فيها بالعبودية، قال–رحمه الله–:

---

(١)سورة : الزخرف (٥٩).

(٢) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت، رقم: (٣٤٤٥) من طريق الزهري عن عبيدالله بن عبدالله عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب.

(٣) سورة : الزخرف (٥٩).

(٤) سورة : الإسراء (١).

(فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾).

والإسراء كان وسيلة إلى المعراج، والمعراج أعظم مواقف النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، أعظم أيامه ولياليه هو ما كان في ليلة المعراج. فإذا كان النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في أعظم مواقفه، وأعظم ما أجراه الله له من الآيات الكبرى العظيمة الدالة على احتفاء الله –سبحانه وتعالى– به، وتخصيصه إياه، لم يجاوز به وصف العبودية، دل ذلك على أي شيء؟ على أنّ أعظم أوصاف النبي –صلى الله عليه وسلم– العبودية وأنه عبد لله –سبحانه وتعالى– نعم، هذه آية.

الثانية:

(وقال في الإيحاء: ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠)﴾[١].

وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا(١٩)﴾[٢]. وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[٣]).

انظر إلى هذه المقامات والأحوال العظيمة، وكيف لم يجاوز الله –جل وعلا– في وصف رسوله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وصف العبودية. (قال في الإيحاء)، وهو المدد من رب العالمين بالهدى والنور الذي أضاءت به الظلمات، وأشرقت له الأرض والسماوات، هذا القرآن العظيم الذي جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم– من رب العالمين. وصف الله –جل وعلا– رسوله حال الإيحاء إليه بقوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[٤]. وهي مقام عظيم، ومنزلة كبرى وحال كبيرة، ومع ذلك اقتصر على هذا الوصف؛ فدل على أنه أشرف أوصافه. وقال في الدعوة وهو مقام التبليغ عن رب العالمين وامتثال أمره –جل وعلا–في قوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ (٢)﴾[٥]. لم يُجاوز وصف العبودية حيث قال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[٦]. و المقام والحال الأخيرة مقام التحدي، والتحدي من رب العالمين لخصوم النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ففيه الانتصار للنبي –صَلَّى

---

(١) سورة : النجم (١٠).

(٢) سورة : الجن (١٩).

(٣) سورة : البقرة (٢٣).

(٤) سورة : النجم (١٠).

(٥) سورة : المدثر (٢).

(٦) سورة : الجن (١٩).

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ومقام الانتصار مقام إظهار فضل المنصور، وبيان منزلته وعظيم مكانته عند من ينصره ويعبده، ومع ذلك لم يجاوز رب العالمين في وصفه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[1].فدل ذلك على أن أخص أوصاف النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ماذا؟ العبودية.

ومن هذا نعلم وندرك خطأ كثير من الذين يسرفون في وصفه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأوصاف متنوعة، يظنون أنها تفي النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حقه، وتطابق قدره وتحقق ما جعله الله -عز وجل- له من المنزلة فيصفونه بأوصاف واسعة، لم ترد في كلام السلف. ثم هم في المقابل يعرضون عن هذا الوصف الذي رضيه الله لرسوله، ورضيه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لنفسه، بل أمر به -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قوله: ((فقولوا: عبد الله ورسوله)).

فينبغي لطلبة العلم أن ينبهوا إلىٰ هذا الأمر، وأن يقتصروا على ما جاءت به السنة في هذا، وليس في هذا حطّ من منزلة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولا نزول في قدره، بل هو اتباع له، وقد قال الله -جل وعلا-: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[2] .فطاعته سبب لهداية الدنيا وفوز الآخرة، نعم.

الآن فرغ الشيخ -رحمه الله- من ذكر فضائل العبادة، وقد ذكر لذلك أوجهاً عديدة، تقدمت الإشارة إليها.

آخر هذه الأوجه أن العبودية وصف خاصَّة أولياء الله -عز وجل-؛ بل هو وصف خاصة أصفيائه: محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أشرف وأعظم أحواله ومقاماته -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله وَسَلَّمَ-.

(فالدين كله داخل في العبادة.

وقد ثبت في الصحيح أن جبريل لما جاء إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام، قال: ((أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)). قال: فما الإيمان؟ قال: ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر، خيره وشره)).

---

(١) سورة : البقرة (٢٣).

(٢) سورة : النور (٥٤).

قال: فما الإحسان؟ قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)). ثم قال في آخر الحديث: ((هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم))[1] فجعل هذا كله من الدِّين).

جواب سؤال السائل في قوله: **(وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟)** هو سأل عن العبادة قال: **(فما العبادة وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها)** أي في العبادة **(أم لا؟)** أجاب الشيخ -رحمه الله- على هذه الأجزاء، فبين العبادة وبين ما فروعها، وبيّن أن الدين كله داخل في العبادة. فالدين كله داخل في العبادة، واستدل لذلك بحديث جبريل الطويل الذي فيه سؤاله عن الإسلام، سؤال جبريل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الإسلام والإيمان والإحسان، وعن أشراط الساعة وعلاماتها، عن الساعة وعن أماراتها، ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في آخر الأمر: **((هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم))**. فجميع ما تقدم من الإسلام، ومن الإيمان، ومن الإحسان، ومما يتعلق باليوم الآخر، كله من الدين، وبهذا نعرف أن الدين يشمل جميع ما أمر الله -سبحانه وتعالى- به، وما يجب اعتقاده في الله، وفي ملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء خيره وشره؛ فلا يخرج شيء مما أمر الله به عن الدين، ولذلك قال الشيخ -رحمه الله-: **(فالدين كله داخل في العبادة)**. فالإنسان في عقيدته يتعبد لله -عز وجل- أنت تتعبد لله -عز وجل- بما تعتقده في الجنة والنار، وبما تعتقده في اليوم الآخر، وبما تعتقده في الملائكة، وبما تعتقده في الرسل والنبيين، وبما تعتقده في الكتب، فضلاً عما يتعلّق به -سبحانه وتعالى-، كل هذا مما يتعبد به أهل الإيمان وأهل الإسلام.

قال -رحمه الله في بيان الدين، قال-:

(والدين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دنته فدان أي: ذللته فذل، ويقال: يدين الله ويدين لله. أي: يعبد الله ويطيعه ويَخضع له. فدين الله: عبادته، وطاعته، والخضوع له.

والعبادة أصل معناها الذل أيضاً، يقال: طريق معبد؛ إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام.

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب. فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له؛ فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة؛ لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة؛ لانصباب القلب إليه، ثم الغرام، وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم. يقال: تيم الله، أي عبد الله؛ فالمتيم: المعبد لمحبوبه.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ٨.

ومن خضع لإنسان مع بُغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن له عابداً، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله).

بين الشيخ –رحمه الله– في هذا المقطع معنى الدين، وأنه يتضمن معنى الخضوع والذل لرب العالمين، وبين وجه ذلك من حيث الاشتقاق، ومن حيث اللغة.

ثم قال –رحمه الله–: **(والعبادة أصل معناها الذل أيضاً)**. فالعبادة دائرة على معنى الذل. ولذلك كان الكبر من أعظم أسباب المنع من دخول الجنة، ومن أعظم أسباب دخول النار. فإن النار دار المتكبرين، والجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. فأدنى ما يكون من المثاقيل والموازين من الكبر يمنع الإنسان من دخول الجنة. لماذا؟ لأن الكبر يقابل العبودية، يقابل العبادة، فإنه لا يجتمع كبر وعبادة. ولذلك الكبر يمنع الإنسان من الانقياد إلى الحق، ويمنعه من العمل به.

فلذلك كان أهل الإيمان إذا قام في قلب أحدهم شيء من الكبر– ولو كان يسيراً– لا يدخل الجنة، حتى يتخلص منه ويمحص ويطهر. فيكون قلبه خالياً من هذه الآفة المانعة.

ولذلك قال الشيخ –رحمه الله–: **(والعبادة أصل معناها الذل أيضاً. يقال: طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام)**. فالطريق المعبد هو الذي سارت عليه الأقدام فذللته فكان معبداً.

لكن أشار الشيخ –رحمه الله– إلى فارق بين المعنى اللغوي للعبادة، وبين معنى الدين الذي هو الذل. قال: **(لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب)**. فليس كافياً في تحقيق العبودية أن يكون الإنسان ذليلاً؛ بل لا بد أن يكون منجذب القلب لرب العالمين، وهذان قطبا العبادة وركناها. لا تقوم عبادة أحد إلا بهما: غاية الذل، معنى غاية الذل منتهى الذل، الغاية هي منتهى الشيء، غاية الذل مع غاية الحب، وبهما يتحقق للإنسان كمال العبودية.

قال ابن القيم –رحمه الله–:

وعبادة الرحمن غاية حبه ....

يعني منتهى حبه.

.... مع ذل عابده هما قطبان

أي هما قطبان للعبادة، ولا تتحقق العبودية ولا العبادة لشخص إلا بهذين الوصفين: غاية الذل مع غاية المحبة لله –عز وجل–.

قال المؤلف –رحمه الله–: **(فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له)**.ثم قال: **(فإن آخر مراتب الحب هو التتيم)**.ذكر الشيخ –رحمه الله– استطرادًا مراتبَ الحب، قال: **(العلاقة)**، هذه أولى وأدنى مراتب الحب، ووجه التسمية قال: **(لتعلق القلب بالمحبوب)**، و**(الصبابة)** قال: **(لانصباب القلب إليه)**، يعني إلى المحبوب، **(ثم الغرام وهو الحب الملازم للقلب)** فإن الغرام المقصود به، يدور معناه على الملازمة، ومنه قول الله تعالى :﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾(١) أي ملازماً لأهلها–نعوذ بالله–. ومنه أيضاً يطلق على طالب الدَّين: غريم، فالغريم لما كان صاحب الدَّين –الدائن– مطالباً للمدين متابعاً له؛ سمي غريماً لأنه يلازمه حيثما ذهب ليأخذ حقه ويستوفي ماله. ثم قال: **(ثم العشق)** وطوى الحديث –رحمه الله– وقال منتقلاً إلى آخر المراتب: **(وآخرها التتيم، يقال: تيم الله أي عبد الله)** والمتيم المعبود المحبوب، وهذا لا يصلح إلا لله –عز وجل–.

واللفظ الذي جاء في الكتاب والسنة في بيان المحبة هو المحبة. لم يأت في الكتاب والسنة ذكر الصبابة، ولا ذكر العلاقة، ولا ذكر الغرام، ولا ذكر العشق، مع أن العشق عند جماعات من الصوفية هو الغاية، وهو لفظ لا يجوز إطلاقه في حق الله –عز وجل–؛ لأن العشق غالباً ما يقترن بشيء من اللذة، وهذا لا يليق بالله –سبحانه وتعالى–.

طيب، الشوق من المراتب التي طوى الشيخ –رحمه الله– الحديث عنها، فهل يصح إطلاق الشوق على الله؟ الجواب: نعم. وقد جاءت بذلك السنة في الدعاء المشهور: **((وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة))** (٢). والحديث جمع أدعية عظيمة في السنن بسند جيد، ومن جملة ما ذكر فيه الشوق إلى الله عز وجل، وهو من مراتب المحبة، أما ما عدا ذلك فإنه لم يثبت.

لكن المقصود أن التتيم وتيم الله، والمتيّم، هذا لا يكون إلا لمن اقترنت محبته بعبادته، ولا تعجب؛ فإن بعض من بُلي بالمحبة يصل به الحال إلى أن يعبد محبوبه دون الله –عز وجل– كما قال الشاعر:

لا تَـــدْعُنِي إلا بيـــا عبـــدها فإنـــه أشـــرف أسمـــائي

---

(١) سورة : الفرقان (٦٥).

(٢) النسائي، كتاب السهو، باب نوع آخر، رقم: (١٣٠٥) من طريق عطاء بن السائب عن أبيه عن عمار بن ياسر، صححه الحاكم.

جعل أشرف أوصافه وأسمائه، أن ينسب إلى محبوبته: يا عبدها. فجعل ذلك أحب ما ينادى به هذا المفتون، نعوذ بالله من الخذلان.

طيب، قال المؤلف –رحمه الله–: **(فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة)** وذكر–رحمه الله– الصبابة والغرام والعشق، وطوى ذكر بقية المراتب والمنازل.

واستشكل بعض الإخوان الخلّة. المؤلف–رحمه الله– هنا يقول: **(فإن آخر مراتب الحب هو التتيم)** مع أن ظاهر النصوص أن الخلة هي أعلى درجات المحبة.

الشيخ –رحمه الله– ذكر في هذا الموضع وفي غيره أن آخر درجات المحبة هو التتيم، وكذلك ذكر ابن القيم هذا في عدة مؤلفات: في (الجواب الكافي)، وفي (إغاثة اللهفان)، وفي (روضة المحبين) ذكر هذا.

والحقيقة أنه مشكل مع ما جاء من أن الخلة هي غاية المحبة؛ لأن الخلة هي المحبة الكاملة التامة.

هكذا عرّفها شيخ الإسلام –رحمه الله– قال: **الخُلَّة هي غاية الحب وكماله ونهايته**. عرفها في عدة مواضع من كلامه. وقد وقفت على كلام ابن القيم–رحمه الله– في (مدارج السالكين)، جعل التتيم مرتبة من مراتب المحبة، لكنه ليس آخرها، بل آخر المراتب هو الخلة، حيث عد عشر منازل أو مراتب من مراتب المحبة، آخرها الخلة، وهي غاية الحب وكماله، وعلى هذا يزول الإشكال؛ فيكون كلام الشيخ –رحمه الله– في هذا الموضع وفي غيره، ذكر التتيم على أنه آخر مراتب المحبة، فيما يصلح أن يكون بين الخلق.

وأما ما يكون لله –عز وجل– فإن غايته ونهايته الخلة، والخلة تتميز عن غيرها من مراتب المحبة بخصائص وميزات:

منها أن الخلة هي الغاية والكمال والمنتهى الذي ليس فوقه شيء.

ومنها أن الخلة أخص من المحبة. وجه تخصيص الخلة عن المحبة: أن الخلة لا يمكن أن يكون فيها شركة؛ بل هي خالصة حيث يملأ المحبّ قلبه من محبوبه، فلا يكون في قلبه مكان لغيره، وعلى هذا أنشد الشاعر قوله:

قد تخلَّلْتَ مسلك الروح مني ... ولذا سُمِّيَ الخليل خليلا

أي إن محبة محبوبه تخللت مسلك الروح، ومسلك الروح، الروح يسلك في جميع البدن، فامتلأ قلبه وبدنه بمحبة محبوبه؛ ولذا سمي الخليل خليلاً.

أيضاً مما تمتاز به الخلة أنها تستلزم العبودية، فيما يتعلق بالله -عز وجل- فإنها من مستلزمات الخلة.

على أن الخلة تكون أيضاً بين الخلق، ولا تستلزم فيما يتعلق بما يكون بين الخلق: العبادة، ومن ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- :((لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً))[1]. فدل ذلك على جواز أن تكون الخلة بين أهل الدنيا، أي بين الخلق، ولا يلزم فقط أن تكون من المخلوق للخالق، أي من العبد لربه -سبحانه وتعالى-.

على كلِّ هذا بعض ما وقفت عليه في كلام الشيخين -رحمهما الله- في ما يتعلق بالخلة، وبهذا ينحل إشكال مسألة أن الخلة هل هي آخر المراتب أو لا؟

الجواب: لا شك أنها آخر المراتب، ولكن يبقى إشكال ذكره في بعض كتبه أنها آخر المراتب، الظاهر تكون باعتبار ما يكون بين الناس من الخلة؛ لأن المرتبة التاسعة مرتبة التعبد، وهي لا تصلح إلا لله، والمرتبة العاشرة وهي الأخيرة مرتبة الخلة، وما قبلهما من المراتب يمكن أن تكون بين الخلق.

ومن وقف على شيء زائد على هذا الذي ذكرناه من كلام الشيخين أو من غيرهما، يفيدنا.

ثم قال: **(ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له)**. هذا بيان لما تقدم من أنه لا بد من اجتماع الأمرين، من اجتماع غاية الحب مع غاية الذل لرب العالمين. ثم قال -رحمه الله-:

(وكل ما أُحبَّ لغير الله؛ فمحبته فاسدة، وما عُظِّمَ بغير أمر الله؛ كان تعظيمه باطلاً. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾[2]).

والمذموم في هذه المحبة أنها قدمت على محبة الله ورسوله، وإلا فإن المحبة الطبيعية التي تقتضيها الجبلة لا حرج فيها على الإنسان، في محبة الأموال، وفي محبة الأولاد، وفي محبة الأزواج، وفي محبة ما يُحب مما يلائم الطبع ويوافقه؛ فإنه لا يلام على هذا، وتسمى المحبة الطبيعية. لكن إذا تجاوز بها الحد فكانت أحب إليه من محبة الله ورسوله؛ هنا يقع المحذور، كما أنه إذا أفرط في محبة شيء ولم تكن محبته لله -

(١) البخاري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم: (٤٦٦)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق، رقم: (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) سورة : التوبة (٢٤).

إنما محبته للدنيا-؛ فإنه يقع في المحذور والتهديد المذكور في قوله تعالى: (﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾) .ثم قال -رحمه الله-:

(فجنس المحبة تكون لله ورسوله كالطاعة؛ فإن الطاعة لله ورسوله، والإرضاء لله ولرسوله: ﴿وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[1]، والإيتاء لله ورسوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُه﴾[2] .

وأما العبادة وما يناسبها من التوكل، والخوف، ونحو ذلك؛ فلا تكون إلا لله وحده كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَة سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ(٥٩)﴾،[4] فالإيتاء لله والرسول كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[5]. وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣)﴾[6]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٦٤)﴾[7]. أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين: الله.

ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنون معه؛ فقد غلط غلطاً فاحشاً، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع).

---

(١) سورة : التوبة (٦٢).

(٢) سورة : التوبة (٥٩).

(٣) سورة : آل عمران (٦٤).

(٤) سورة : التوبة (٥٩).

(٥) سورة : الحشر (٧).

(٦) سورة : آل عمران (١٧٣).

(٧) سورة : الأنفال (٦٤).

هذا في الحقيقة نوع استطراد من الشيخ –رحمه الله– بعد ذكر المحبة، لَمّا ذكر المحبة وأنها من أركان العبادة التي لا تقوم إلا بها، بَيَّنَ –رحمه الله– أن:

منها ما لا يصلح إلا لله –جل وعلا–.

ومنها ما يكون للنبي–صلى الله عليه وسلم–.

ومنها أيضاً ما يكون لغير النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لكنه لله –جل وعلا– من حيث إن الله أمر به؛ فهو ليس محبة لله لذاته، إنما هو محبةٌ لما يحبه –سبحانه وتعالى–.

واعلم أن المحبة في الأصل لله –جل وعلا– له ولمحبوباته –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، ثم إنه قد وسَّع الله على عباده فأجاز لهم من المحابّ ما يوافق طبائعهم، وما يلائم جبلتهم، وهذا لا تَثْرِيبَ عليهم فيه، لكنهم لا يؤجرون عليه إنما الأجر في محبته– سبحانه وتعالى– وفي محبة رسوله وفيما أمر بمحبته، وفيما هو من محابّه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

ثم اعلم أن الشيخ –رَحِمَهُ اللهُ– ذكر بعد ذلك ما يكون لله وللرسول؛ يعني ما يصلح أن يكون من أعمال القلوب لله ويشركه معه غيره، لكن لا على وجه التسوية، كمحبة الله ورسوله، فالمحبة لله وللرسول، فالرسول يشارك الله في المحبة؛ لكنها ليست محبة على وجه التسوية بل هي محبة تابعة لمحبة الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، كذلك محبة أولياء الله الصالحين، محبة الأعمال الصالحة، هذه كلها تابعة لمحبة الله – عز وجل– فلا تعارض ولا تنافي محبة الله –جل وعلا– وليست من المحبة المذمومة، بل هي من المحبة المأمورة التي يؤجر عليها الإنسان.

ثم من العبادات ما لا يكون إلا لله –سبحانه وتعالى– أو من أعمال القلوب ما لا يكون إلا له؛ فلا يجوز أن يشرك معه غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

ومن ذلك ما ذكر في قوله: (**وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ونحو ذلك، فلا تكون إلا لله وحده، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[(١)]). وكذلك في قوله: (**﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا**

(١) سورة : آل عمران (٦٤).

حَسْبُنَا اللّهُ – أي كافينا الله– **سَيُؤْتِينَا اللّهُ من فَضْلِه وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾)**[1] فالرغبة والرهبة له وحده دون غيره ،ولذلك قال: **﴿سَيُؤْتِينَا اللّهُ من فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾** وهذا الإيتاء يشرك به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الله – سبحانه وتعالى– لكنه في الرغبة لا يكون إلا لله –سبحانه وتعالى– ولذلك قال: **﴿إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾** فقدم ما حقه التأخير، قدّم الجار والمجرور؛ ليدل على اختصاص الله – عز وجل– وانفراده –سبحانه وتعالى– بذلك: **﴿إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾**. فتقديم ما حقه التأخير يفيد التخصيص. قال: **(فالإيتاء لله والرسول كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾**[2]**)**.

ثم قال: **(وأما الحسب)** والحسب **(قال: وهو الكافي)**، يعني الكفاية، الحسب هو الكفاية من الله –سبحانه وتعالى– **(فهو لله وحده)**. **(فالحسب وهو الكافي فهو الله وحده، كما قال تعالى:﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ**– ما هو المعنى؟ كافينا الله–**وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾**[3]**)**، **(وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ﴾**[4]**)** أي كافيك الله **﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٦٤)﴾**[5]، ثم أشار الشيخ –رحمه الله– إلى معنى الآية قال: أي**(حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين: الله)**، يعني أن الله –جل وعلا– كافيك وكافي من اتبعك.

ثم أشار إلى معنى مغلوط، يفهمه بعض الناس أو يحمل الآية عليه، يقول: **(ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنون معه)** فجعل الكفاية بالله وبالمؤمنين **(فقد غلط غلطاً فاحشاً)**، وفي موضع آخر قال: غلطاً كبيراً أو عظيماً **(كما بسطناه في غير هذا الموضع)**. وذلك أن الكفاية لا تكون إلا من الله –جل وعلا– فالله يكفي رسوله، ويكفي أهل الإيمان، ويكفي من اتبع النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وسلم– وعلى هذا المعنى الصحيح يكون قوله تعالى: **﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾** الاسم الموصول (مَنْ)، معطوف

(١) سورة : التوبة (٥٩).
(٢) سورة : الحشر (٧).
(٣) سورة : آل عمران (١٧٣).
(٤) سورة : الأنفال (٦٤).
(٥) سورة : الأنفال (٦٤).

على أي شيء يا إخوان؟ هل هو معطوف على لفظ الجلالة الله ؟ أو على الضمير؟ على الضمير ﴿حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ والتقدير: حسبك ومن اتبعك من المؤمنين: الله.

وهذا بعض أهل النحو يأباه، ويقول: لا يصح عطف الظاهر على المضمر.

ولكن هذا ليس بصحيح، بل قد جاءت الدلائل والشواهد في كلام العرب على صحة هذا التقدير، وجواز عطف الظاهر على المضمر. الخلاصة: فيكون المعنى ﴿حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ يعني كافيك ومن اتبعك من المؤمنين، كافيك من؟ الله –جل وعلا– يكفيك ويكفي أتباعك.

ومن هذه فائدة مهمة –يا إخوان– تحثنا على متابعة النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – أن كفاية الله –عز وجل– موعود بها من اتبع النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم– فبقدر ما يتحقق لك من المتابعة للنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم– بقدر ما يحصل لك من الكفاية من رب العالمين الذي بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله.

والعبد إذا صحح الاتباع وحققه، وأخلصه في الظاهر والباطن للنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم–؛ فاز بهذا الفوز العظيم والغنيمة الكبيرة: أن الله ربّ السماوات والأرض يكفيه، ومن كفاه الله فلا خوف عليه ولا شرّ يصل إليه؛ لأنه –جل وعلا– الخير كله في يديه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

فينبغي للمؤمن أن يتنشط بمثل هذه الوعود، وهذه الآيات التي تحثّ على متابعة النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم– والمتابعة ليست فقط في ظاهر الأمر، المتابعة في الظاهر والباطن، المتابعة في الدقيق والجليل، المتابعة في الصغير والكبير، المتابعة في الغيب والشهادة. إذا عوّد الإنسان نفسه على هذا؛ فاز بهذه الوعود العظيمة من رب العالمين، والله لا يخلف الميعاد.

ثم قال –رحمه الله–: (**وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾**(1)). وهذا كالدليل لهذا التفسير، وأن الكفاية من الله لعبده، ليست من أحد سوى الله –جل وعلا–.

(١) سورة : الزمر(٣٦).